سأكون بين اللوز – ٢

حسين جميل برغوثي

حينما أمشي، ليلاً، والقمر كامل، في خرائب «الدير الجواني»، أشعر إلى أي مدى كان هذا مكانا قصياً، في البراري، ولم يكن ليسكنه «إلا وحش أو إله،» بتعبير أرسطو، وله جلالة الخراب والقدم، وأراه في خيالي ينهض من خرائبه ويعود مضاء بسراج من الفخار فيه فتيل مبتل بزيت الزيتون، وحوله ساحة مرصوفة بحجارة ملساء، مكعبة، وصغيرة، تفيض بخطى رهبان وتراتيل، وضوء نجوم خافت، أيام كانت النجوم إشارة إلى القدر، والمصائر. وحوله، خارج السور، ثعالب، وضباع، وجن، وكثرة من كائنات لا ترى.

مكان «براني» تماماً، ومع ذلك سماه أهلي القدماء «الجواني»، وكأنه كان أقرب إليهم من «حبل الوريد». اسمه نفسه ساحر، يشبه معبداً يضيء على تل في أغوار روحهم هم. برانية الموقع، وجوانية الدير في اسم واحد. سحر!

وقد يقول بعض حكماء البوذية لمن يفكر مثلي: «أنت لا ترى ديراً ولا خرائب دير، بل يسيل ذهنك إلى خارجه، ثم يتجمد ويأخذ في نظرك هيئة دير وخرائب دير، فيرى ذهنك نفسه لا غير». فليكن! في أقصى روحي دير جواني ما، وحكاية «قدورة» بابه.

وقدورة هذا كان «هنا»، قبل أن أولد، و «من قبل ما كان الشجر عالي»، ولم يزل يعزف على ربابته على سطح الدير، وكأنه لم يتنازل حتى بعد موته عن قطع الطرق: فيوقف ذاكرتي عنده، بوتر وأغنية، كي تكون بدايتي قاطع طرق لا غير.

كان أشقر، أزرق العينين، ويسكن في الدير مع «كايد»، أكثر إخوته سطوة، وذراعه الأيمن. ولم يعش لهما ولا ولد واحد.

في البدء، تزوج «كايد» من «سعوطة». وأنجبت له عدة أولاد ماتوا الواحد بعد الآخر. فشعرت سعوطة برائحة موت في رحمها، بخراب ما. ولما رزقها الله بولد يدعى «نايف»، وبسبب من هذا الحس بالخراب، ربما، صارت تدور على الكهوف السحيقة، والقريبة من الدير، حيث تسكن هياكل موتى مسجاة بسلام في حوض ماء من أيام الرومان، أو حتى الكنعانيين، وتنعف العظام المنخورة إلى الخارج، وتزيح رائحة الموت من المنطقة كلها. نعفت العظام، وكنست التراب، وعادت الى الدير، منهكة، فألبست «نايف» خير وأجمل ملابسه، وعطرته، وغفت قربه على الحصير. وعندها حلمت حلماً غريباً فعلاً.

حلمت بالدير مضاء بالسراج، وفارغاً، وبابه مفتوح، فدخلت امرأة تلبس السواد، صامتة، ووقفت في الزاوية الأبعد للدير، بين الظلال، وكأنها حارسة على روح المكان، وحدقت في «سعوطة»، زمناً، ثم قالت لها: «أخرجت عظام موتانا، واسترحت الآن؟ سأخرج نايف من ديره..».

واستيقظت سعوطة من حلمها فزعة في العزلة، وفركت عينيها، ولم تر احداً، فاستعاذت بالله، ثم نظرت إلى نايف، وهزته، فلم يتحرك، فيه سكون الموتى، وجثته هامدة. قالت أمي بأن سعوطة حلفت بالله ليلتها أن لا تزيح عظام الماضي أبداً، أبداً، ما دامت حية. ولعل هذا ما جعلها تصبح، في أواخر عمرها، «داية القرية»، فاختارت توليد المستقبل بدل إزاحة عظام الماضي.

كانت من عادات نساء قبيلتنا، أيامها، أن يحتفلن بـ«خميس الأموات» خميس وثني الجذور، سحيق القدم، من «أعياد الربيع»، والبعث. كن يسلقن بيضاً كثيراً في ماء تغلي فيه قشور البصل الحمراء، فيصبح البيض أحمر وبنياً، ويتزخرف بألوان ترابية. ثم يخبزن خبزاً «مخمراً»، أصفر كالليمون، من حبوب الـ«عصفر» المنشورة فيه، ثم يحملن ما خبزن وسلقن على صوان من قش مصبوغ هو الآخر، ومنسوج على هيئة زخرفات هندسية مجردة وملونة، من إرث هذه المنطقة من العالم، ثم ينزلن بكل قيامة الألوان هذه الى المقبرة، في صباح خميس ربيعي دافئ، ويقعدن فوق قبور موتانا وموتاهن، بين شجيرات «البصلون» ذات الزهور الزرقاء الكبيرة، والناعمة، حين تكون المقبرة منقطة بالأزرق منها، ويوزعن البيض والحلوى والخبز على الأطفال، ويأملن أن ينبعث موتاهن كما ينبعث العشب حين يشق قشرة التراب، أو كما تولد

فراخ تشق قشور البيض، أو كما تنبعث الألوان نفسها، وتلك طقوس نسائية لا رجل يشاركهن فيها.

لكن سعوطة لم تحمل صينيتها إلى المقبرة العادية، بل ذهبت بالحلوى والخبز والبيض إلى كهف يدعى «المربّية» – ، كانوا دفنوا نايف فيه، أو «فيها». قعدت في الرطوبة، في هذه الرائحة الخاصة التي تميز كهفاً يشبه حبة «فستق» مغلقة على ما في جوفها، ولا تنفتح إلا ليدخلها طفل مات. وبكت، وكأن الدموع مطر تستغيث به كي يبعث نايف حياً، مع النرجس، والاقحوان، وخضرة العشب، والشمس . هبط الليل وهي قاعدة أمام صينيتها. فجأة سمعت ، من أغوار «المربية» صوت انهيارات غامضة، وكأن جهة من الجبل تنهار، ثم سمعت صهيل خيل أقرب لصهيل الجن منه إلى الخيل. لم تستطع الوقوف من الرعب، وأخذت ترجف وتزحف إلى الخلف، على مؤخرتها، تاركة صينيتها هناك. حتى وصلت الباب.

لما بلغ قدورة خبر نايف، وحلم سعوطة، لم يلفظ لفظة واحدة. ومر زمن من الصمت. كان أقسى من حجر، وأرق من وتر ربابته، وبالتالي، لم يقل ما في قلبه إلا لربابته. كان يدخن أرجيلته على سطح الدير، ويتأمل الأودية المقمرة العميقة حوله، ومعه تسهر أمي، وسعوطة، وأخت له. تناول ربابته وبدأ يغني عن ليال بيضاء لم تأت أبداً لـ «تمحو سواد الليالي»، وعن وعود بنجوم لم تبرق إلا كالخيال إلى زوال، ثم غنى مقطعاً عابراً عن «غريبة عن الجبل»، أي لا تدرك منطق المكان الذي اغتربت فيه، وعنه. وسعوطة من فرع آخر من قبيلتنا، وقرية أخرى، أي «غريبة»، ليست من «هنا». والتقطت تلميحه عنها، ولا أدري بماذا شعرت عندها.

لكن أمي كانت «غريبة»، أيضاً، وتعرف مشاعر الغريبات جيداً، فقد تربت يتيمة، وامتهنت الرقص والغناء زمناً في مواسم فلاحي المنطقة، فسألتها عن «مشاعر الغريبات»، الشبيهات بـ «سعوطة»، فغنت:

«يا راكبين الخيل زوروا لي حبيبتكم
وان قصّرت الخيول،
شدوا لي همتكم!»

وتخيلتُ سعوطة، وهي قاعدة على سطح الدير، وقدورة يغني، تنظر إلى أقاصي الجبال المقمرة، في الشمال، بعيداً، وتتخيل أهلها يركبون سبع خيول بيضاء، في

مسالك الجبال الموحشة، في الطريق الى زيارة «الغريبة»، وربما لم يأت منهم أحد، ولا حتى في العيد، وشعرت بحسرتها ، وأنها «غريبة عن الجبل».

«ولا تطلعي على السلالم
هبّ الهوا غربي
ويش يحرق القلب، غير الليل والغربة.»

ورغم الغربة لم تنكسر روح سعوطة أو روح أمي في الدير الجواني، عندما كان قدورة حياً، حتى أن أخته مستها النشوة، ذات صباح، فانفلتت ترقص وحدها في الجنائن، وتغني، وتضحك بين الزيتون، حتى حسبوا أنها جنّت، ولما أوقفوها قالت: «كيف لا ترقص من ترى حولها رجالاً كهؤلاء؟»، أي قدورة وأخوته. وواصلت الرقص.

مات كايد هذا، فجأة، قدراً من الله. فتزوج قدورة من زوجته، سعوطة، وتبنى ابنته، نايفة، محض طفلة صغيرة لا تعرف شيئاً عن الدنيا بعد، وتزوجت طفلاً آخر أصغر منها، من قرية قرب نابلس – منطقة نائية في البراري، بمعايير تلك الأزمنة. صارت تخلع عن رأس «عريسها» طاقيته البيضاء، وتلعب بها معه في التراب.

كانت تلملم حطباً في الجبال، يوما ما، حين عضتها حماتها في كتفها، لأنها تفوقت عليها في جمع الحطب. لم تحتمل الإهانة، فصبرت حتى أول الصبح، ثم تسللت من غرفتها، سراً، وفتحت بوابة البيت، عائدة الى الدير الجواني، مشياً على الأقدام، في رحلة نحو أصلها وبداياتها في ذلك الجبل. كانت الطريق موحشة، بغيلان وضباع وجن، وكائنات أخرى، لما هبط الليل. فرأت قناديل في بيت أحد الفلاحين في الطريق، فدقت بابه، ونامت هناك.

لما استيقظ اهل زوجها ولم يجدوها بعثوا بفارس منهم الى الدير الجواني كي «يعيدها إليهم». فوصل إلى هناك قبلها. ركب قدورة فرسه، وحمل بندقيته، وخرج باحثاً عنها في الجبال، فوجدها في بطن «شِعب» ما، وأردفها خلفه على ظهر فرسه، وأرجعها الى الدير. ثم قال للفارس: «لن تعود إلا إن دفعتم ثمن ضياعها في الجبال». «وما هو؟». «أخذتم منها عروة من ذهب في طرف سلسال ذهبي، أعيدوا لها عروتها.» كانت «العرى الذهبية» نادرة، وطافوا طويلاً، حتى وجدوا عروة عثمانية عند عجوز ما في إحدى القرى، فاشتروها، وبعثوها إلى الدير. قلّب قدورة العروة بين يديه، وقال: «لن تعود إلا إن دفعتم مهرها كاملاً». «لكننا دفعناه». قال «ادفعوه مرة ثانية، هذا

ثمن كرامتها».

مرت سنة حتى جمعوا مهرها الجديد، وأتوا به إلى الدير. فقال قدورة: «جاءت إلى الدير هاربة، ولن تخرج منه إلا عروساً جديدة. زفوها زفافاً ثانياً» وزفوها. ولكنه أوقف زفتها في باب الدير وقال: «قبل أن تأخذوها لديّ شرط أخير: إن عادت الى الدير مرة أخرى، ستدفعون مهر كرامة قدورة نفسه، ومهرها غال ولن تقدورن عليه».

لا عجب أن ترقص أخته في الجنائن حتى حسبوا أنها جنت «لأن لها إخوة كهؤلاء»!

\\\

أما لِمَ كنت أنا اتذكر حكايات الجبل هذه، وأنا أمشي، كعادتي ، بين جنائن اللوز المقمرة حول بيتنا، وبالكاد أتنفس، بسبب من ورم جديد في الرئة، وأطل على شبح الموت، فسؤال آخر. ربما كنت أتنفس بالحكايات هواء أمكنة وأزمنة اخرى، لأشعر بفضاء مقمر آخر في داخلي، وأعود الى «دير جواني» ما في روحي، يمنحني قوة البدايات كي أواجه «قسوة النهايات». فالخيال طاقة.

ولكن الورم اشتد، ولم اعد قادراً على التنفس، وضاق صدري بما فيه، فقال لي دكتور أمراض الدم في مستشفى رام الله، في الصباح، «السرطان قد يكون رجع». كان متوتراً لأن ابني، آثر، كان معي. «لم تحضرون أولادكم إلى المستشفيات؟ هنا جراثيم وأمراض! أعده إلى البيت، وارجع، حالتك طارئة.» لا شيء ينتهي تماماً في هذه الأرض المقدسة، وكل شيء يرجع، أو كما قال المتنبي: يظل يجيء الذي قد مضى، لأن الذي سوف يأتي ذهب!

قضيت سبعة عشر يوماً في مستشفى رام الله، في غرفة تفتح على دهليز مضاء بالنيون، دائماً، ولم يدخله أي ضوء طبيعي منذ عقود، ولن يدخله أبداً، وكأن من «أسس» الهندسة المعمارية للمستشفيات والسجون عندنا فرض «عزلة ضوئية» على المرضى. فالمستشفى والسجن طرفا تشبيه واحد.

عندما جاءت السلطة الفلسطينية، وتسلمت سجن رام الله من قوات الاحتلال الاسرائيلي، مثلا، فتحته للزوار العاديين، والسجناء السابقين فيه، فرأيت «فن التصميم المعماري» عارياً هناك: زنزانة لم أصلها، حتى في الظهيرة، إلا عبر نفق مظلم يقود إلى كهف، فأضأت عيدان كبريت كي أرى في العتمة السائدة. فوجدتني على رأس سلم درج حجري ينزل إلى الأسفل، على اليسار «درابزين» من الحديد، وعلى اليمين

جدار رطب يبدو وكأنه نحت بعناية خاصة، وبعد آخر درجة بركة ماء مستطيلة، وعلى يسار الدرابزين مباشرة، بركة أخرى، وفي البركتين ماء يبلغ علوه متراً على الأقل، ماء آسن ضارب الى الخضرة، على سطحه قش وحشرات ووعد بعذاب سرمدي. هنا، في الماء، كانوا يضعون السجين في «عزلة انفرادية»، في العتمة الدامسة. قربي يقف «جميل أبو سعدا» – أستاذ بيولوجيا في جامعة بيرزيت – وجهه تشوه وهو يحدق في الماء، ثم قال: «هنا قضيت ليال كاملة، يا حسين، في هذا الماء نفسه! لم استطع لا الجلوس ولا الوقوف!»

في آخر الليل في المستشفى، عندما تنام الممرضات، ويحل صمت، أتكئ على السرير، تحت أزيز النيون، وجسمي كله منتهك، مخرم من الإبر، وبقع سوداء وخضراء في ذراعيّ. وفي دمي، بدل الشهوات، ليترات أدوية تكفي لأعرف ما معنى «مطر الكيمياء». هذا هو التعبير الذي خطر ببالي بالضبط، حين قيل لي سأخضع للعلاج الكيماوي قبل سنتين: «مطر الكيمياء». تخيلت انهم سيوقفونني في «حمام» مغلق، على مصطبة من الإسمنت المسلح – هذا الإختراع الروماني الرهيب، الإسمنت المسلح! – ومن فتحات في السقف تمطر محاليل كيماوية على جسمي كله. ومنها محلول أحمر حمرة قانية، في كيس بلاستيكي يثير الغثيان، لاحقاً سيصبون منه ليترات في دمي.

لتلك الغرفة شباك عريض يطل على قاعة اسمنتية مهجورة، لم تكتمل، مرمية فيها صناديق أدوية فارغة، «تبرعات» من «الأشقاء»، و «الأعداء»، و «الأخوة الأعداء»، لـ «شعب الانتفاضة» ، وإبر قديمة، وأكياس دم مستعملة. ركام حولي، بدل جنائن اللوز . وانتبهت إلى قطة سوداء واقفة في وسط القاعة، تحت شبح الضوء، هزيلة، كتلة عظمية في الحقيقة، تعطس بعنف، وتهتز من ذنبها حتى رأسها، وتحاول أن تستفرغ ما في باطنها عبثاً. يبدو أنها ابتلعت أدوية، أو شظايا إبر، مع بقايا أكل المستشفى. وكان ينزل من فمها زبد أصفر، وشعرت بأنها مثلي تماما: فأنا أرغب أيضاً أن أنزع الإبر من ظهر يدي، وأستفرغ كل ما في باطني، وفي ذهني، وأحمل كتبي، وجلدي، وثيابي، وأغادر، إلى الدير الجواني، وإلى جنائن اللوز. ذهني يشبه هذه القاعة، ويحتاج أمكنة واسعة، مقمرة، ومفتوحة على درب التبانات، على المعمار الإلهي نفسه. ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل! لو خدروني، بدل هذا الصحو!

أفكر في ابني، آثر، بلغ الثالثة الآن. هل هو نائم، أم يلعب في جنائن اللوز، ويسأل أمه عني؟ أكاد أسمع ضحكاتهما هناك، حيث لا أصل، في جنائن لم تعد في متناول الأيدي، سأعود إلى الجنائن، سأعود، فجسمي ليس بالضبط أنا، مهما أمعنت في غيها

الإبر! «وكأنني قد مت، قبل الآن، أعرف هذه الرؤيا..».

ولكنه أتى في الصباح، في وقت الزيارة، مع بترا، زوجتي. لمحته يمشي أمامها في الممر، بين الزوار، ويضحك، ولمع في يده الصغيرة غصن لوز عليه حبات ناعمة خضراء. ركض إلي، فرحاً، وقال «حسين، حسين، وينك؟ أنا والله كنت أبحث عنك!؟». وأعطاني الغصن. كنت وكأنني على شاطئ بحر، والدنيا ضباب، ولا أرى شيئاً، ولا أدري أين أنا بالضبط. ورأيته، قادماً على الرمل، من بين الضباب، وشعره مغسول بهدير الموج، ويعطيني «غصناً ذهبياً» يخرج منه جني صغير يدلني على الطريق. فشعرت كأنني في حلم بعثه جبل الآلهة إلي، حلم يشبه رد مظفر النواب حين قالوا له لن يوصلك البحر إلى البصرة، قال: «البحر سيوصلني»، قالوا لن يوصلك البحر إلى البصرة قال «البحر سيوصلني، أو تأتي البصرة في الأحلام وتأخذني». والغصن الذهبي في يده يشبه البصرة في الأحلام أتت لتأخذني إلى «الخارج» إلى مكان لم يعد نيله بالمستطاع، وليس في متناول الأيدي. وخطر ببالي قول محمود درويش:

«إذا مرت على وجهي، أنامل شعرك المبتل بالرمل
سأنهي لعبتي أنهي
وأمضي نحو منزلنا القديم على خطى أهلي
وأهتف:
يا حجارة بيتنا صلي»

ومضيت نحو منزلنا القديم، ولكن في الضوء الخطأ، في مساء خماسيني تعيس. كم فوجئت بخضرة العشب وقد صارت هشيماً يابساً لا أمل فيه، وحتى حبات اللوز كانت قاسية، ومتسخة من الغبار، في أعالي الشجر، وبيوت النمل بدت مهجورة، وفوضى حيث نظرت، في قلبي وفي خارجه.

«يا زمان
زي عشب ناشر عالحيطان!»

رجعت ليس لأني نجوت، بل لكي أسافر بعد يومين الى مركز الأمل للأورام السرطانية في عمان. فوضى في قلبي وفي خارجه. لكن لا توجد فوضى، بل نظام آخر للأشياء، ربما.

\\\

«هذا مساء قياموي،» قلت لنفسي.

كنت قاعداً تحت شباك بيتنا العتيق، قبل السفر، عندما بدأ طفل أبله أعرفه، يعزف على الـ «هارمونيكا» لحناً بعيداً، مضطرباً، ضائعاً في الهواء ، هناك، خلف جنائن اللوز، وبسبب من العزف، هذا العزف، ربما، بدأ الغبار الأشبه بدخان أبيض تسفوه فوق الجبال والشجر ريح خماسينية – شرقية خانقة، يرتفع ويتجمع، فوق، ويتحول إلى صفرة حادة، تشبه «غبار الذهب المصحون»، ثم بدأ، من الغرب، طفح أحمر غريب يشبه سيلاً من شفق قلق يزحف شرقاً، وفي جوانبه دوامات سوداء وخضراء وبنية، تتقلب وكأن السماء نفسها ستغلي، ولا شمس هناك، لا شمس أبداً. في زاوية منعزلة، غرباً، فوق الأودية، لاح القمر أزرق كالحا ثم اختفى تماماً. فجأة، فوق القرية القديمة، بدأ يطفح ضوء أشد سطوعاً من البدر، إشراقي، يصعد من تحت، من الأودية، ربما، وينتشر وكأن يداً خفية تدهن الأفق به، لترسم إشراقة صوفية، فبرزت أكثر قبة الجامع الخضراء، كصدى آخر لقبة السماء الحمراء فوقها، وشعرت بأن شيئاً سيقع، ستقع السماء على الأرض، مثلاً. فيلم من أغرب ما يمكن من ألوان وخطوط.

أما الضوء نفسه فصار غامقاً. يشف ويزيد ثقلاً على الجنائن، كظل إله وثني يمرق فوق. والريح انقلبت إلى غربية باردة كادت أن تقتلع الورد أمامي. غمرتني رائحة نعناع بري، وورد، ولكنني شعرت بأن هذا العطر من نذر القيامة، «أم أنه العصف الذي تنحل فيه الروح والرؤيا وتنحل البلاد»؟ حتى أمي لاحظت غرابة الجو، فقلبت نظرها في أحواض النباتات التي زرعتها، وقالت «كل القطط اختفت اليوم، ولا قطة بقيت هنا». خلفها، فوق البئر العتيقة، «سلك» غسيل عليه عصفور رمادي تكاد الريح تشلع اجنحته، ولا يطير، بل يتشبث بمكانه.

حتى آثر، الذي بلغ الثالثة الآن، قعد قربي خائفاً، ثم قال: «حسين، انظر الى البحر الذي فوق!» (التسمية التي يطلقها على السماء). لم أجبه، كنت مذهولاً تماماً، وأراقب، فأكمل، «حسين، أريد فستاناً!». قلت «الفساتين للبنات، أنت ولد». قال: «طيب. أريد بأن أصير بنتاً!». شردت في رغبته في التحول. قلت سيصبح أنثى لسبع سنين، مثل تايريزياس، عراف معبد دلفي، ثم يرجع ذكراً، فتعترف به جنائن اللوز عرافاً لمعبدها، وأحكم من ينطق باسم الآلهة!

ثم امتصت روحي كلياً رمانة لم أنتبه إليها من قبل، خضراء جداً، زرعتها أمي في حوض حجري بدائي تحتها هشيم يابس، وزادت حدة خضرتها عتمة الضوء، وبرز أكثر ، بالتالي ، حضور الـ «جلنار» – زهور الرمان الحمراء الأشبه بنيران شفيفة غاية في النعومة والإيحاء ، وبدت كضربات فنان بفرشاة وحشية، على خلفية خضراء داكنة، وكانت تشرق بنور غريب أشبه بشطحات صوفية لا يصح عليها لا نقل ولا عقل، وحتى أنا نفسي بدوت إشاعة في أذن المكان أكثر مني وجوداً صلباً. لقد استيقظت الأشياء! لا تنم أنت! من زمن وأنا أحلم أن أعود طفلاً، بعد نضوجي، كي استيقظ.

فجأة قال آثر، وكأنه التقط هذه الفكرة من أغواري، : «حسين، لم لا تصير أنت آثر، وأصير أنا حسين؟». غريب، روحي وروحه يعرفان بعضهما من حياة سابقة، حتماً، وإلا لما التقط ما أفكر فيه. نعم، نعم، قلت لنفسي، القطط لم تعد، والضوء غريب، وشعرت بخوف، بحاجة إلى الهرب، كالقطط.

«الدنيا مقلوبة. كان يجب أن يأتي هذا المطر قبل عشرين يوماً، وليس الآن»، قالت أمي. «نعم، نعم، مقلوبة، هذا أكيد،» تمتمت محتاراً. وطار العصفور عن سلك الغسيل إلى الرمانة، ووقف قليلاً بين «قناديل الجلنار»، ولما لم يستطع مقاومة هبوب الهواء، طار بطريقة مائلة، وكأن الريح سفته معها، وكان يشبه أغنية فيروز:

«وقصتنا الغريبة شلّعها الهوا..»

وذلك الأبله يعزف على هارمونيكاه، لم يزل... وانبعثت عطور سبق وشممتها، روائح نعناع من الماضي، وتشابيه مدفونة في تربة الذاكرة. كل شيء بدا مثل صينية «سعوطة» التي حملت عليها كل قيامة الألوان إلى كهف «المربية» كي تشهد قيامة نايف من موته. وأفاقت في الكلمات المنسية منذ حياتي السابقة في دورة التناسخ الأبدي هذه، حيث يرجع كل شيء، ولا شيء يرجع تماماً.

كنت قرأت لمحمود درويش، قبل ثلاثين عاماً، قوله:
«خلت أني فراشة، في قناديل جلنار».

وتذكرت التشبيه وأنا أحدق في وهج الجلنار. لم أشعر بأني فراشة بيضاء في القناديل، كنت مريضاً، وثقيلاً، وأبعد ما أكون عن بياض الفراشة. ولكن القناديل تتوهج في هذا الضوء الغامق، وحدها تتوهج، وحدها، وتضيء كسرب شموع في

أيدي فرسان على خيولهم يمرون، ليلاً، في أساطير أهلي، في عرس صامت.
ألم تحن قيامتي بعد؟ سأنضج عما قريب، مع اللوز، والرمان، والورد، وأقول لهذه الجنائن: قد نضجت! وإن ضحكت ستشرق الشمس، وإن بكيت ستمطر، وسأرجع طفلاً، وإن لم استطع الآن، ففي حياتي الحالية سأحيا لأعرف، لكن في حياتي التالية في دورة التناسخ هذه سأرجع إلى الأرض وأمشي عليها كطفل – نبي.

\\\

سافرت إلى «مركز الأمل» –– للأورام السرطانية، في عمان. وأقمت هناك شهراً كاملاً ، في «الرصيفة»: مدينة من غبار. والانتظار المرعب. انتظار نتائج الفحوصات. جسمي نفسه كان يتصلب، وتقل حركته، ولا بكاء ولا فرح، مشروع تمثال. ولمن ينتقل من مستشفى إلى آخر، وينتظر قدره، مثلي، كل «كيمياء الروح» فيه تستند إلى أية قوة مغناطيسية هي الأقوى في قلبه: الأمل أم سينما الهلاك هذه. والسؤال، عندي، ليس متى أو كيف أموت، ولا حتى ثنائية الأمل والهلاك، بل ماذا سأخلق من نفسي، الآن، كي تكون نهايتي احتفالاً سامياً ببداياتي. فأجدني بدل الإحتفاء السامي بالبدايات أشبه هذا الفيلم الاميركي لمخرج مصاب بالإيدز، فيلم كله بالأزرق، لا تمرق فيه سوى أشباح أشياء زرقاء، وصوت المخرج يحكي: «أية جحيم هي غرفة الانتظار....» وأية جحيم هي الرصيفة! مدينة من غبار خماسيني، وظهيرة صحراوية تشبه «واقعاً مقلياً على ٤٥ درجة مئوية».

أفق من جبال رملية، مطفأة اللون، وبيوت من باطون مسلح ورمادي أشد ثقلاً من الجو نفسه، وتبدو نشازاً، أو اجهاضاً معمارياً. ولا زهرة. خضرة قليلة، وفقر بصري، ومساحات تنتج جوعاً إلى اللون. ولمقاومة طاقة المكان المملة هذه، يحتفون بكل «لون اصطناعي». وبكل لون «فاقع». في كل بيت دخلته بديل لموت الصحراء والمعمار.

مثلاً، أقمت مدة في «فيللا» لها صالون واسع كل أثاثه مذهب، ويشع في الضوء الأصفر، ليلاً، مثل عروق الذهب، وعلى الحائط ألواح ذهبية مصممة على هيئة «أبواب» مغلقة، ولا تقل لمعاناً، محفورة فيها آيات قرآنية. وفي الزوايا تتشعب زهور اصطناعية من قماش أحمر أو من بلاستيك أخضر. في غرفة استقبال أخرى طاولات صغيرة، وظهورها من مرايا، وتعكس كل ما يوضع عليها، موزعة حول تلفزيون ملون، قربه، على اليمين، حوض سمك ملون، أيضاً، فيه شلالات مضاءة بالأزرق، في قعر صندوق

زجاجي يتشبه بالمحيط. كل شيء «كيتش» – براق ولامع، ويشير إلى ذوق رخيص لا يعي نفسه.

سر كل هذا الـ «كيتش» يكمن في محاولة السكان جعل «داخل البيت» عالماً قائماً بذاته، ملجأ من موت الطبيعة اللوني في الخارج، واحة، ولو مبتذلة. وخميس أموات من نوع آخر.

والرصيفة سوق تجاري، دكاكين وصيدليات ومطاعم ومحلات بيع أقمشة وأدوات كهربائية، مثلاً، ولا مقهى واحد يستحق الجلوس فيه، لا مكان للهرب من الغبار، ومن موت اللون، ولا منظر غير «آرمات» الشوارع الملونة بألوان متنافرة. أعني بأن مجرد الحياة هنا محض سوء تفاهم مع الله. وطغى عليّ حس بالطوق، بأن لا بديل، حيث من الممنوع، إنسانياً، أن أبقى، ومن الممنوع، واقعياً، أن أذهب، وأستطيع أن أكون أي شيء – إلا أنا.

أهرب إلى البيت. فأجلس لساعات كاملة، وحتى لأيام، وأنا بلا حركة، أحدق في نقطة أمامي، على المصطبة، أو أنام. وجسمي يتصلب، تدريجياً، وأتمنى أن أكون نحاتاً كي أنقش في حجر شعوري بـ «تصلب» جسمي هذا. لا عجب أن يصاب المقيمون هنا بوسواس ديني غير سوي. هنا العالم مشبوه، وكل ما يجمعه بأي عالم حقيقي مجرد وهم.

\\\

قال بول كلي، مرة، أن الرسام لا يرسم «المرئي»، بل «يجعله مرئياً». والسرطان رسام جعل اللامرئي في عيني مرئياً، حين يلتقي الفن والحب والموت في الروح.

فمثلاً، منذ البداية، بعد أول جلسة للعلاج الكيماوي، لم أكن استطيع المشي في كوريدور «مستشفى بيت جالا»، إلا ولدي شعور بأن وصول آخره مستحيل، وكأن المسافة تكبر كثيراً حين نعجز عن المشي. وأحياناً يزوغ البصر فلا أرى غير ضوء أبيض يشبه رذاذاً ساطعاً لا أرى فيه أو به، وأكاد أقع، وبعد كل خطوة أستريح. وتكبر التفاصيل، تصبح «مرئية». يتركز كل انتباهي في بقعة من غبار في زاوية مهملة من الدرج لم ينظفها أحد، أو في قصاصة ورق مرمية، أو حشرة سوداء على الزجاج تحرك أجنحتها تحت الشمس ولا تطير. وكأن كوناً ثانياً لم ألحظه من قبل، ونسيته، يحضر فجأة إلى الوعي.

في الليل، تلمع بقعة فضية تحت النيون على مقبض باب، أو على حافة كأس عصير البرتقال. وأشرد في الضوء. لا تغترب الأشياء عن عينيّ قط، بل تغترب عيناي عن الأشياء، أيضاً. أحد الزوار، من مرافقي المرضى، يمر أمام الباب، فيرى برتقالة أمامي، ويشيح بنظره عنها، فهي «برتقالة لمريض»، وقد تعديه، وتشع منها طاقة مرضية توقظ مخاوفه من أن يحدث له ما حدث لي. هناك زوار يشعرون بـ«الشفقة» عليّ، وهناك من يرتعب، وهناك من يعتاش على مخاوف المرضى، مثل هذا الرجل من حركة «الدعوة» بسروال ولحية وصندل، وشكل غريب، وكأنه من أهل الكهف. رأى زوجتي فاستيقظت شهواته الجنسية، فأخذ يروح ويجيء، وكلما مرق من أمام الباب طرح السلام، ثم دخل لكي «يهدي أخاه في الإسلام»، ولكن عينيه تحملقان في زوجتي، ولا يرى بأنني أرى، وأشعر بالغربة، بأنني صرت «نوعاً آخر» من البشر. فأحدق في وهج البرتقالة ولا أكلمه.

«البرتقال يضيء غربتنا
البرتقال يضيء
والياسمين يثير عزلتنا
والياسمين بريء»

تفاصيل، تفاصيل، تفاصيل. وكأن كل فقاعة صابون كون. وأسهر، محدقاً في الباب المفتوح على ممر خال في الطابق الثاني، مضاء إضاءة حمراء شاحبة، فيطل من الباب عجوز من الجنوب، بعباءة سوداء، وسروال كبير، وعلى ذقنه وشم، بعقال ثقيل وكوفية فظة، وكأنه قفز من فيلم عن الفن البدائي، وفي يده قنينة من «حليب النوق». كنت رأيته في نفس اليوم، عصراً. وقف في الباب، عندها، وقال لي إن خير علاج للسرطان «حليب نوق من سيناء!». «ومن أين لي بحليب نوق من سيناء؟ لم أذقه ولا مرة في حياتي، وبالكاد اصادف ناقة في نصف قرن.» «حليب النوق فقاعة صابون»، هكذا قال، وضحك، دكتور الأورام: «ولا كل حليب النوق في الربع الخالي يجدي فتيلا!». نعم، ولكن الإرادة تبحث عن حل ولو في فقاعة. ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل. فقاعة، نعم، ولكنها توقظ الأمل، ولو إلى حين.

والآن أتى بقنينة حليب من الجنوب، من «تقوع». فوجئت من كرم روحه. فمن أنا له حتى يأتي بحليب نوق من الجنوب، وكيف أتى به؟ وشربت أملاً حامضاً، أبيض، واستفرغت كل ما في باطني.

كنت أعتقد بأنني سأموت، في خلال سنة أو سنتين، عندما مرضت، ولا بيت لزوجتي وابني بعد. وبدأت أحلم ببناء بيت بسيط لهما في الريف: حوله تراب أحمر، وسياج من خشب ناشف، وحديقة صغيرة. وأزرع بصلاً، وثوماً، ونعناعاً ، وبندورة، وليمونة. وفي الربيع، في صباح بارد، والندى فوق العشب، في أول الصبح، أنهض وأقطف بصلاً، وثوماً، ونعناعاً، وليموناً، واصنع بيدي صحن «سلطة» لآثر وبترا ، أصنعه بيدي أنا، هذا شرط. كل الفكرة هنا. ثم أوقظ آثر وأمه، ونقعد على طاولة خشب بدائية، أو في فيئ زيتونة، ونأكل معاً، هذا سيكون احتفالي بالحياة: صحن سلطة.

«لأول مرة أخرجوني إلى باحة السجن، فاتكأت تحت الشمس على الجدار،تعجبت لأن السماء زرقاء إلى هذا الحد، وبعيدة عني إلى هذا الحد أيضاً». هكذا قال ناظم حكمت. التفاصيل هي السر، التفاصيل الآن، لا ما مضى أو سوف يأتي، بل صحن سلطة، وقفة تحت سماء زرقاء إلى هذا الحد ، قطة تلعق مخالبها قربي، وآثر يلعب بالتراب. هذا هو كل ما اريد. هل تصغر الأحلام إلى هذا الحد أيضاً؟ السرطان رسام يجعل التفاصيل الصغيرة «مرئية»، والحياة نفسها فن. وما هي إن لم تكن فناً؟

\\\

قال دكتور الأورام السرطانية في «مركز الأمل»، بعد شهر من الفحوصات: «الفحوصات انتهت، أخبار جيدة. لم يرجع السرطان. أنت معافى. لكن هناك ورم مساحته ٢٢ سم مربع في الفلقة اليسرى من الرئة. سنعالجه بالكرتزون . لا حاجة لمستشفى، تستطيع العودة إلى...» ولم يكمل الجملة. فقلت: «إلى جنائن اللوز».

كتب الدواء. ضحكت وقلت في نفسي: «لم يرجع السرطان، لأنني الآن لست أنا، إنني أرجع طفلاً، والسرطان أصاب شخصاً يائساً، طاعناً في السن، في داخلي، شخصاً آخر لا وجه شبه بيني وبينه».

خرجت من المركز ضاحكاً، وأول ما فعلته هو الوقوف بين ظلال الصنوبر قرب مستشفى الجامعة الأردنية. وكما قال حكماء الشرق المقدسون، إن كنت تقف في داخل نفسك في المكان الصحيح، فحيث تقف هو المكان الصحيح. وعليّ فقط أن أكمل عودتي إلى الطفل الكامن فيّ.

كنت أحتاج السفر، ولمدة طويلة، على ظهر ناقة، مثلاً، أو في سيارة، أو قارب، لكي أرى أمكنة كثيرة أخرى تمحو من ذاكرتي «دهاليز المستشفيات»، ومن أنفي رائحة الأدوية.

ووجدتني بعد يومين أمشي على شاطئ البحر الأحمر، ليلاً، مع آثر وبترا وصديق لنا دعانا إلى هناك. الزبد في الليل يشبه الفضة، والبحر داكن، وهدير يأتي من تحت البحر، ومن اليمين والشمال، من قريب ومن بعيد، وأمشي ، أمشي، ويغسل الهدير كل ذاكرتي، لا دهاليز تقود إلى غرف عمليات، لا إبر، ولا مستشفيات، ولا حليب نوق، لا رائحة أدوية، أنسى، أريد أن أنسى، والبحر يغسل ذهني، وبالكاد يكفي كل هذا الزبد والهدير لكي يغسل ذهني، بالكاد. وأمشي، صامتاً، والهواء البارد يتشعب في رئتيّ، ولا أشعر بضيق التنفس. قدماي حافيتان في الرمل، وأمشي، إلى الأبد. لا أريد الآن شيئاً غير الآن. بالكاد عندي وقت إلا كي أشعر بالهدير يغسل قاع ذهني، ولا شيء هناك سوى الهدير.

في اليوم التالي، دعانا ذات الصديق إلى زيارة لمدينة البتراء، والبتراء مذهلة. كنت أحلم بها من عقود. اسم زوجتي، أصلاً، ايمان، وسميتها «بترا، المدينة الوردية».

كانت لذة خالصة أن أرى «بترا» الآن تدخل في مدينة اسمها، وبدت شبه ملكة على عربة تجرها خيول الأنباط القديمة في مدينة الورد. وأنا من أنا؟ سائق عربة عربيد «يقهقه لأنه لم يخسر اللعبة، بعد،» ويطوف ببترا في مدينة اسمها؟

مدينة منحوتة في صخر مذهل الألوان. إن كان عبدة النار يطمحون إلى الحركة والطاقة، فنحاتوا هذه المدينة حفروا إرادتهم في الصخر عبادة للجمال والثبات، مع إخوتهم، بناة الأهرامات، ومن اكتشفوا فن تحنيط المومياوات . وبين النار وبتراء، أو بين النار والمومياء، تتحرك الروح فينا كلنا. إن ملنا إلى النار صار كل ثبات وهماً، وإن ملنا الى البتراء صارت كل حركة وهماً. كل الفن التشكيلي، مثلاً، يتحرك بين حركة النار وبين ثبات الأهرامات، أو البتراء، وما هو الخوف من الموت إن لم يكن خوفاً من «التغير»، أي من قلق النار فينا جميعاً.

بترا في مدينة اسمها؟

أما اسمي، حسين، فلا مدينة له. دائماً كنت أشعر أن لا صلة له حتى بي، أبداً، ولا مدينة له. ويشبه، في علاقته بي، قصة «اسمي وأنا»، لتشيخوف . ومن الطريف اسم «برغوثي» نفسه، أي أفق يخلقه اسم كهذا، أية مدينة يمكن أن توجد لـ «برغوث»؟

عندما تزوجت بترا سألتني: لماذا سموكم «براغثة»؟ . قلت لها ضاحكاً: «نسبة إلى الأسود!».

أما اسم أبي، «جميل»، فاسم جميل، ولكنه سائد إلى حد الملل، فالاسم كالمدن: له مواطنوه، ويوحي بـ «مشترك» ما، بين من يحملون نفس الاسم، أكثر مما هو موجود في الواقع. كل اسمي خطأ. ليس عبثاً أنني لم أدر بماذا اسمي ابني، آثر، قبل ولادته.

فكرت في أن اسميه «لوركا». «لا، لا»، قال الرسام ابراهيم المزين، «سيهيمن عليه اسم لوركا طوال حياته، وسيرجعه دائماً إلى اسبانيا». ولم لا؟

فكرت بأن اسميه «المعتمد» (نسبة الى المعتمد بن عباد) الشاعر – الأمير في الأندلس الذي تزوج من امرأة غريبة الأطوار: مرة وقفت في شباك القصر، وقالت له بأنها تحب روية ثلوج في الربيع، في الجبال، هناك! فزرع لها الجبال باللوز، كي يبدو نواره في الربيع ثلوجاً بيضاء.

والمعتمد قصة. مرة طلبت منه بناته ان يمشين في الوحل، كالفلاحين، فمزج مسكا وكافوراً في ردهات القصر ومشين حافيات فيه. ولما فقد ملكه، وانتهى في «سجن أغمات مأسوراً» تحسر لأن بناته:

«يطأن في الطين، والأقدام حافية،
كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا ».

وبدأ الأمير الشاعر يدين الحياة:

«من عاش بعدك في ملك يسر به،
فإنما عاش بالأحلام مغروراً».

ولا أريد مدينة اسم ابني أن تكون مدينة رغبات خاسرة، وأمراء خاسرين، كالمعتمد، وارتبكت تماماً، حتى جاءني صوت من الغيب في حلمي يهتف بي أن سمه: آثر، آثر، آثر، أي لست أنا الذي سميته، ولست أدري، بالتالي، ما هي مدينة اسمه، ولا أحد له اسم كهذا ولا مدينة غامضة كهذه، لا يعلم بها إلا الله.. لعل هذا ما دفعني إلى أن أقرأ رواية «مدن الخيال» لايتاليو كالفينو.

وتخيلت بأنني سأذهب إلى الدير الجواني بحثاً عن «مدينة لاسمي»، يمكن أن أسميها «قدورة»، مدينة قدورة! وهي من «مدن الخيال»، وشوارعها من حكايات. وأستطيع أن أبنيها بشفاهي، وشفاه أمي، وأن أنقلها إلى أية شفاه تحب أن «تحكي قصصاً». مدينة من هباء،

«إنت من وين؟

أنا من بلد الحكايات»، على رأي فيروز!

ومن أصدقائي علي بابا، وأنكيدو، وكل من ولدوا وعاشوا وظلوا في الحكايات. والحكايات شبابيك الروح، والخيال. مثلاً، عندما كان قدورة يفرد عباءته على سطح الدير ، ويعزف على ربابته، ويطل على أودية مقمرة، وجنائن محروثة ومزروعة، ومسافات غامضة ومفتوحة، ويغني، كان يفتح في الفضاء المقمر شباكاً لصوته، ويحتل صوته حيزاً أزلياً في الفضاء، وغناؤه كان «مدينة اسمه»،

«وإنت من وين؟

أنا من بلد الشبابيك..»!

إن كان «الدير الجواني» هو مدينة اسمي، أو رمزها، مثلاً، فإنها مدينة تطير، كهذه الأفعى الزعراء والملونة التي تطير فوق الجبال المقفرة وتزغرد، مدينة ليست مقيدة كالشجر بجذوره، لا جذور لها، في الحقيقة، بل خفيفة جداً، وموجودة في لحن ربابة ضائع، أو في أغنية قاطع طرق، مثلاً، أو حكاية عن الجن.. وإن كان الدير الجواني هو مدينة اسم قدورة، هل لي «حارة» فيها؟ أم أن عليّ أن أواصل السفر في «جوانيتي»، و«برانيتي»، بحثاً عن مدينة اسمي، وعن اسمي وأن أمنح قدورة نفسه مكاناً في «مدينتي»؟

سكان «الرصيفة»، أساساً، لاجئون فلسطينيون من حيفا أو يافا أو اللد، أو .. أو.. وإن سألت أحدهم من أين أنت، سيقول: «أنا أصلاً من حيفا أو يافا أو اللد... أو .. أو..»، أي لا يعتقد بأن «الرصيفة» هي مدينة اسمه، وكثير منهم لم يعرف، ولم ير حيفا أو يافا أو اللد، «مدينة اسمه» هذه، أبداً. فهي مدينة ركبها في خياله من حكايات أمه وأبيه وجده، مثلاً. لم ألتق بأحد يعتبر الرصيفة «مدينة اسمه». هذا هو سر الرصيفة نفسها: وعاء تقيم فيه أسماء فقدت مدنها، وتبحث عما فقدته، وهي أسماء هائمة في الصحارى، كالرياح، ليلاً، أو في الزمن، وقد تمر بكل «مدن الخيال» في الدنيا،

«وكل يوم بغني في مدينة،

بحمل صوتي وبمشي عطول».

وقد تصل، يوماً ما، إلى «المدن المفقودة»، من يدري، أسماء سكان الرصيفة «مدن إشارات»، تشير إلى «مدن الذاكرة الضائعة»، أما الرصيفة نفسها فسوء تفاهم مع الله، كما قلت، حاضرة لا ينتمي إليها أي اسم.

رام الله